

التبيان في تفسير القرآن

(356) سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون (19) آية اخبر الله تعالى في هذه الآية انه لم يكن الناس فيما مضى الا امة واحدة والامة الجماعة التي على معنى واحد في خلق او ما يستمر على عبادته بالظاهر، فعلى هذا الناس امة والطير امة، والمراد - ههنا - أنها كانت على دين واحد. واختلفوا في الدين الذي كانوا مجتمعين عليه قبل حدوث الاختلاف بينهم على قولين: فقال الحسن كانوا على الشرك كما قال تعالى " كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين " (1) وقال الزجاج: أراد بذلك العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي (صلى الله عليه وآله) فانهم كانوا مشركين، فلما بعث النبي آمن به قوم وكفر به آخرون. وقال الجبائي: انهم كانوا على الاسلام، في عهد آدم وولده وأنكر الاول. قال لان الله تعالى قال " فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا " (2) فلو كانوا كلهم على الكفر لما كان فيهم شهيدا أصلا قال الرماني: لا يمتنع ان يكون الامر على ما قال الحسن ويكون المراد التغليب كأن المسلمين كانوا قليلين، فلا يعتد بهم، فيجوز أن يقال فيهم أنهم امة مشركة كما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال (ان الله نظر إلى اهل الارض فمقتهم الا بقايا من أهل الكتاب). وقال مجاهد: فاختلفوا حين قتل ابن آدم أخاه. والاختلاف هو الذهاب في الجهتين فصاعدا من الجهات، وحد المختلفين ان لا يسد احدهما مسد صاحبه فيما يرجع إلى ذاته كما لا يسد السواد مسد البياض. وقوله " ولو لا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم " معناه لو لا كلمة سبقت من ربك من انه لا يعاجل العصاة بالعقوبة انعاما عليهم في الثاني بهم " لقضي بينهم " في اختلافهم بما يضطرهم إلى علم المحق من المبطل. وقيل معنى ذلك " لقضي بينهم " اي فصل بينهم بأن اهلك العصاة وانجى المؤمنين، لكنه أخرهم إلى يوم القيامة _____ (1) سورة 2 البقرة آية 213 (2) سورة 4 النساء آية